

بحر الروح

لقاء مع المجهول

ما أن تدرك أن إصابتك مؤكدة بذلك الفيروس اللعين، تبدأ كواليس اللقاء الرهيب.. وكأنك تخطو خطوات وثيقة وثقيلة باتجاه مقامرة ليست مأمونة العواقب.. مقامرة الحياة والموت التي هي قائمة طيلة الوقت، لكنك لا تعرف عنها شيئاً ولا تواجهها بمثل هذه المباشرة المقبضة.. على ما يبدو أن "كوفيد" صار يجردنا حتى من "رحمة الغيب" الذي أخفى عنا مواقيت التنفيذ.. فصار يضع الجميع أمام لحظات قاسية من الانتظار والألم التي لا يعلم أحد كيف ستنتهي؟

ترى.. ما الذي سطره هذا الوباء الغامض في كتاب الموتى؟ لقد حرر الموت من قناعه وجعله كائناً حراً طليقاً يتخلى عن مجهوليته ويتربص بالجميع في توحش فج ومجاهرة مرعبة.. جعله يظهر لضحاياه ليروونه رؤى العين ويرهبهم بكامل طاقته، كما لو كان ملاك الموت أصبح مرئياً للبشر لحظة إتمام مهمته وقبضه الأرواح.. جعلهم يترقبون أنفاسهم المجهدة خشية أن تتراجع وألا تعود مجدداً.. جعلهم أيضاً يدركون قيمة الحياة وما تفيض به من نعم يجهلون قيمتها وقدرها، لتحيطهم الأمانى الذابلة بأن يعود الزمن بهم مرة أخرى، ليفعلوا ما قد أجلوه، ولا علم لهم بسيف الوقت الذي يصعب التنبؤ بموعد طعنته.

ما الذي سطره هذا الوباء الغامض في كتاب الموتى؟

من ينهى كواليس المقابلة بسلام يخرج من قبو الموت كـ "الناجى الأخير" من موكب النحيب، ثم يدلف مجدداً من بوابة الحياة، ليرى الدنيا بعين وليدة يחדشها ضوء الشمس القوي، كمن ظل أعواماً في ظلام محكم تحت الأرض.. يستنشق ذرات الأكسجين كـ "الجائع" الذى أرهقه العوز ولا يريد أن يمر بتجربة الحصار التنفسي مرة ثانية.. يفتح رثتيه على مصراعيها كمن يريد أن ينتزع الحياة ويفر هارباً من هذا المحيط المشتعل.. يضغط على قلبه، كى يمنحه لمسة طمأنينة تهديه قبلة الحياة التي يرتجئها.. يتفقد الطرقات بعين السجين الذى راودته الظنون بأنه سيظل حبيس الجدران التي تأوى معاناته الثقيلة. ينظر إلى العالم من حوله بابتسامات حذرة ممتزجة بدموع دافئة كأحد أشكال العودة المحفوفة بمخاطر غير معلومة. من ينهى كواليس المقابلة بسلام، يظل يحمل فى قلبه ارتجافة خوف من وجع لم يعده من قبل، من انطفاء لم يكن يتأهب لها.. من تجربة قصمت ظهر الاحتمال وعظمت نوبات الوهن. من ينهى كواليس المقابلة بسلام يتشبث بالدنيا كمن دفن حياً أو توقف قلبه للحظات، ثم عاد من غياهب الموت إلى الحياة بقلب طفل يتشبث بعباءة ذويه، كى لا يغيب بغير رجعة.. من ينهى كواليس المقابلة بسلام، يتمنى لو لم يكن أحد المدعويين على طاولة هذا اللقاء الموحش وألا يقع عليه الاختيار البائس.

حتى الناجين من فواجع هذه المقابلة، تظل رائحة الموت عالقة بأنوفهم يتشمموننا فى رهبة.. كان من السهل ألا يُطلق الموت سراحهم وألا يعودوا مرة أخرى.. لقد كانت مقابلة حية مع الموت تتجسد بها تفاصيل الرحيل، بالتسجيل البطيء كـ "بث تجريبي" و "محاكاة افتراضية" ثقيلة.. نعم، لقد عدنا، ولكن ليس كما كنا. لقد كانت بالفعل مقابلة ترويعية للبعض. وبحسب درجة الاقتراب من الشهيق الحارق، يكون عمق الأثر الذى لا يُغادرنا.



بقلم:
شيرين ماهر